

ولكنني قد خطبتها لك. قال الفتى: فإنِّي لم أفوضك في ذلك. قال سليم: وقد خطبتها أمك لك. قال الفتى: ولم أفوضها كما أني لم أفوضك. قال سليم: ولكن أمك قد ألحت عليّ في هذا الزواج قبل أن تموت. قال الفتى: ألحت عليك أنت ولم تلح علي أنا. قال سليم وقد استيأس من ابنه: أنت وما تشاء! ولكن لا تجهز بذلك حتى أفضي به إلى عمك، وسأجد في ذلك جهداً وألماً. قال الفتى: لن أجهز بذلك ولن أسره؛ لأنني لا أحفل به، ولا حاجة إلى أن تُفضي به إلى عمي، فإنني لن أتزوج من جلنار ولا من غيرها. ثم انطلق الفتى وترك أباه متردداً بين السخط والرضا، وأكبر الظن أنه ارتاح إلى خطة ابنه، فلم يكن يحفل بأن يقضي على ابنه بهذه الفتاة الدميمة، فيكون حظه كحظ عمه خالد حين تزوج أمها نفيسة.

وأما عليّ فلم يقل لأبيه شيئاً، ولم يترك صناعة الخياط التي اضطر إليها، ولم يتصرف في أمره كما تصرف أخوه، وإنما كان يذهب إلى معلمه وجه النهار فلا يصنع عنده شيئاً، فلما آنس المعلم منه غفلة وكسلاً سخره في قضاء الحاجات البعيدة ولم يعلمه شيئاً، وكان الفتى إذا أقبل المساء تنقل بين المساجد وحلقات الذكر، يُصلي هنا ويذكر هناك، وهو لا يذوق من الذكر ولا من الصلاة شيئاً، وكان يلم بدار أبيه فيصيب فيها شيئاً من طعام ثم ينصرف إلى حياته الفارغة خارج الدار، فإذا تقدم الليل أقبل فاستلقى على فراشه حتى يصبح فيستأنف حياة البطالة والفرار، كان كلاً على أبيه، كلاً على أخيه، ضحكة لبني عمه إذا زارهم، ولم يكن يزورهم إلا قليلاً، وكان فرحاً دائماً لا يأسى على شيء، ولا يفكر في شيء، ولا يستطيع أحد أن يؤذيه بقول أو فعل؛ لأن الأشياء كانت تنزلق على نفسه الملساء دون أن تترك فيها أثراً حسناً أو سيئاً. وكان سليم محباً لابنيه ضيقاً بهما في وقت واحد؛ ولكنه كان يؤثر سالماً؛ لأنه أكبر أبنائه، ولأنه كان كثير النشاط حسن الشارة، يعود عليه بالدينار أو الدينارين من حين إلى حين، فيفرج أزمة أو يعين على حق، ومع ذلك فقد كان يحنو على علي حنواً شديداً، يرى فيه فتى ضعيفاً ضيق الحيلة، ويرى في الرفق به والعطف عليه والشقاء ببطلته هذه لوناً من الجهاد كهذا الجهاد الذي كان يحتمل مشقته بين امرأته، وكان مع ذلك مشغولاً عن هذين الشابين بعمله وأهله وبينين وبنات وُلدوا له، فمضى في تربيتهم كما مضى في تربية سالم وعليّ، أسلمهم إلى الصُّناع، وكان يقول لصديقه وأخيه خالد: ماذا تريد؟ لا ينبغي أن نغالب القدر ولا أن نعانَد القضاء، ولا أن نكون جميعاً سادة ممتازين، يجب أن يكون أبنائي هملاً كأبناء أبيك، وأن تمتاز أنت ويمتاز أبنائك؛ فحسب الأسرة أن يمتاز فرع